تطور الاستيطان الزراعي في منطقة الشلف أواخر الفترة الاستعمارية (1950-1960) وأثره على الجزائريين.

The development of Agricultural Settlement in the Chlef region at the End of the Colonial Period (1950-1960) and its Impact on the Algerians

د. عبد القادر بوتشيشة- Boutchicha abdelkader- صص210- 227
أستاذ محاضر أ
كلية العلوم الانسانية والاجتماعية- جامعة حسيبة بن بوعلي- الشلف.
البريد الإلكتروني: a.boutchicha@univ-chlef.dz

تاريخ استقبال المقال: 2019/09/03 تاريخ المراجعة: 2019/09/04 تاريخ القبول: 2019/09/07

الملخص: إن الاستيطان كظاهرة بشرية قديم قدم الإنسان نفسه، ارتبط بقيام وتوسع الدول والإمبراطوريات على مر التاريخ، وكان عاملا مهما في نشوء الحضارات في مختلف أرجاء المعمورة؛ بل إن الشرائع السماوية تُؤكد على أن الله خلق الإنسان واستوطنه في الأرض ليعمرها.

ومع نشوء الحركة الاستعمارية وتطورها في الفترة الحديثة والمعاصرة أصبح الاستيطان رديفا للاستعمار وأحد دوافعه ووسائله، وذلك بذريعة الإعمار وإرساء سيطرة الدولة المهيمنة على الأرض التي ضمتها وباتت تعتبرها جزءا منها. هذا بالإضافة إلى دوافع أخرى سياسية وثقافية ودينية.

عملت فرنسا- كقوة استعمارية- على توطين المعمرين منذ السنوات الأولى لاحتلالها الجزائر، وشرعت في نزع ملكية الأرض من الأهالي، وتسليمها للمعمرين الجدد بمختلف الوسائل والطرق مستغلة مقاومة الجزائريين لها، لتفرض عليهم العقوبات الجماعية، ومنها حرمانهم من أراضيهم.

ومن أهم المناطق التي عانت من التوسع الاستيطاني منطقة حوض الشلف؛ لشساعة مساحتها الزراعية وخصوبة أراضيها وتنوع تربتها، ولذا نجحت الزراعات الدخيلة التي مارسها المستوطنون الأوروبيون كالكروم والتبغ والقطن بالإضافة إلى المزروعات السائدة كالحبوب وأشجار الزيتون والخضر والفواكه وغيرها.

أثّر التواجد الاستيطاني على النشاط الزراعي للجزائريين حتى بعد الإصلاحات المزعومة التي تبنتها الإدارة الاستعمارية في أواخر وجودها في الجزائر؛ فاختلف النشاط الزراعي لدى المستوطنين الأوروبيين عن النشاط الزراعي لدى المسلمين من حيث النوع والإنتاج والمردود ومساحة الوحدات الزراعة؛ الأمر الذي كرس وجود قطاعين متباينين: قطاع حديث غني وقطاع تقليدي فقير، وانعكس هذا سلبا على الوضع الاجتماعي ومستوى المعيشة للمسلمين الجزائريين عامة والفلاحين خاصة، الذين كانوا يشكلون أغلبية سكان العمالة.

الكلمات المفتاحية: الاستيطان؛ المستوطنون؛ الفلاحون؛ الشلف؛ الكروم؛ الحبوب؛ الزراعات الغنية؛ الزراعات الفقيرة؛ القطاع التقليدي؛ القطاع الحديث.

ABSTRACT : *Settlement as an ancient human phenomenon has been linked to the establishment and expansion of nations and empires throughout history, and has been an important factor in the emergence of civilizations throughout the globe; the divine laws confirm that God created man and commanded him to inhabit the earth. With the emergence of the colonial movement and its development in the modern and contemporary era, settlement has become synonymous with colonialism and one of its motives and means, under the pretext of reconstruction and the establishment of the dominant state on the land that annexed it and considered it part of it. In addition to other political, cultural and religious motives.*

France, as a colonial power, has settled the colonization of the colonists since the early years of its occupation of Algeria. It began expropriating the land from the "people" and handing it over to the new colonizers in various ways and ways, exploiting the resistance of the Algerians to impose collective punishments.

The most important areas that have suffered from settlement expansion are the Chlef basin area, the size of its agricultural area, the fertility of its lands and the diversity of its soil. Therefore, the exotic agriculture practiced by European settlers such as chromium, tobacco and cotton, as well as the prevailing crops such as grain, olive trees, vegetables, fruits and others, succeeded.

Keywords: *Settlement; Colonizers; Farmers; Chlef ; Vineyards; Grains; Rich Agricultures; Poor Agricultures; Traditional Sector; Modern Sector*

المقدمة: شرعت فرنسا في توطين المعمرين منذ السنوات الأولى لاحتلالها الجزائر، وعملت على نزع ملكية الأرض من «الأهالي»، وتسليمها للمعمرين الجدد بمختلف الوسائل والطرق، مستغلة مقاومة الجزائريين لها لتطبق عليهم شريعة المنتصر، ولتفرض عليهم العقوبات الجماعية ومنها مصادرة أراضيهم.

ومن أهم المناطق التي عانت من التوسع الاستيطاني منطقة حوض الشلف، لخصوبة أراضيها وشساعة مساحتها الزراعية، وقد أثر التواجد الاستيطاني على النشاط الزراعي للجزائريين حتى بعد الإصلاحات المزعومة التي تبنتها الإدارة الاستعمارية في أواخر فترة احتلالها للجزائر.

فكيف تطور الاستيطان الزراعي في المنطقة؟ وما هي أنواع الزراعات والأساليب الزراعية التي أدخلها المستوطنون؟ وكيف أثر ذلك على اقتصاد الفلاحين الجزائريين؟ وهل استفاد «الأهالي» من الإصلاحات التي عرفها القطاع الزراعي في نهاية الحقبة الاستعمارية؟

ذلك ما سنحاول الإجابة عليه في هذه الورقة البحثية من خلال مناقشة مفهوم مصطلح الاستيطان والمفاهيم المرتبطة به، وتتبع تطور الاستيطان بالمنطقة، وتبيان واقع الزراعة بالمنطقة والأثار التي ترتبت على الاستيطان الزراعي بالمنطقة انطلاقا من المصادر الفرنسية نفسها.

- **الاستيطان والمستوطنون: إشكالية المصطلح والمفهوم:** إن الاستيطان كظاهرة بشرية قديمة قدم الإنسان نفسه، ارتبطت بنمو وتوسع الدول والإمبراطوريات على مر التاريخ، وكانت عاملا مهما في نشوء الحضارات في مختلف أرجاء المعمورة؛ بل إن الشرائع السماوية تُؤكد على أن الله خلق الإنسان واستوطنه في الأرض.

- **الاستيطان لغة واصطلاحا:** كلمة الإستيطان في اللغة العربية من الفعل استوطن وهو فعل سداسي متعد، من الجذر [و.ط.ن]، واستوطن مصدر اِسْتِيطانٌ، ومنها اِسْتَوْطَنَ البِلاَدَ، اِتَّخَذَها وَطَناً لَهُ، استوطن فلانٌ المكانَ، أقام في بلد غريب واتّخذه وطنّا له، والاستيطان هي حالة استقرار الكائن الدَّخيل في الموطن الجديد، وفي لسان العرب، أوطنت الأرض ووطَّنتها توطينا واسْتَوْطَنْتُها أي اتخذتها وطنا[1].

ويقابل كلمة استيطان كلمة (Colonisation)[2] بالفرنسية، وهي حسب موسوعة لاروس من فعل (Coloniser)، تحويل بلد إلى مستوطَنة (مستعمرة)، أما المستوطن (Colon) فهو شخص مهاجر أو سليل مهاجرين في مستوطَنة، في القرن 19 استقر عدد من المستوطنين في الجزائر[3]، ويفهم من المعنى اللغوي لكلمة (Colon) (المستوطن) أنها تطلق على المستوطن وأبنائه وأحفاده حتى لو كانوا ولدوا في الموطن الجديد.

يتضح مما سبق أن هناك تداخلا- لدرجة الالتباس- بين المفردات اللغوية المستعملة للدلالة على الظاهرة المعنية وأشخاصها (الاستيطان والمستوطنون)، وانسحب هذا التداخل والالتباس على المعنى الاصطلاحي؛ فالمُعمِّر لا تعكس تماما المراد من كلمة المستوطن مع أنه للكلمتين دلالة واحدة عند الفرنسيين (Colon).

إن كلمة الاستعمار في مدلولها اللغوي تعني عمارة الأرض أي إقامة العمران؛ فالله خلَق الإنسان لعمارة الأرض وهو من العمل الصالح؛ قال تعالى، ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود، 61]، هذه العمارةُ تشمل كلَّ ما فيه نفعٌ وفائدة للفرد والمجتمع؛ وهو طبع وفطرة بشرية ولا يرتكب ما يخالف هذه العمارةَ إلا مَن انتكست فطرتُه؛ فاستوى عنده العمَار بالخراب، والإصلاح بالإفساد[4].

وبالنظر إلى التطور التاريخي لظاهرة الاستعمار، وبخاصة تلك المرتبطة بالاستيطان، وما صاحبها من أعمال وما نجم عنها من آثار؛ فإن المعنى الاصطلاحي لكلمة الاستعمار ابتعد كثيرا عن معناها اللغوي، الأمر الذي جعل المفكر والوزير الجزائري السابق مولود قاسم نايت بلقاسم يستكنف عن استعمال كلمة الاستعمار للتعبير عن التواجد الفرنسي في الجزائر ويسميه استدمارًا[5].

إن التحديد الدقيق لمفهوم الاستيطان والمفاهيم المرتبطة به كالاستعمار والاحتلال والتوسع والاستغلال مسألة في غاية الصعوبة لارتباطها بالإيديولوجية وبالصراع بين البشر بمختلف أبعاده السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحضارية.

عرّفت موسوعة Universalis الاستعمار (Colonisation) بأنه يستوجب احتلال الأرض وإلحاق البلد بالدولة المحتلة. ويكون أحيانا في مناطق قليلة السكان وأحيانا يكون على حساب أراضي السكان المحليين الذين أصبحوا من رعايا الدولة

المستعمِرة[6]، ولذا فالاستيطان ارتبط ارتباطا وثيقا بالتطور التاريخي والعسكري لعمليات الغزو[7]، وهو حسب تزفيتان تورودو (Tzvetan Todorov) يعني أيضا التنصير، والتبادل غير العادل، والعنف وإرادة إخضاع الآخر[8].

أما **المستوطنون** (بالنسبة للجزائر)، فهو- حسب سعد الله- تعبير عام يشمل الفرنسيين الأصليين الذين هاجروا من بلادهم إلى الجزائر كما يشمل الإسبان والإيطاليين والمالطيين وغيرهم من شعوب أوروبا الغربية الذين هاجروا إلى الجزائر وتجنسوا بالجنسية الفرنسية، وكان يطلق على الجميع اسم الكولون (Colons) أو المعمرين (المستعمرين)[9].

- **الاستيطان والقانون الدولي:** نشأ الاستيطان كرافد من روافد الحملات الاستعمارية منذ الاكتشافات الاستعمارية الأولى التي قام بها الإسبان والبرتغاليون والهولنديون، وبالتالي تناوله القانون الدولي ضمن هذه المنظومة؛ فقد عرّف القانون الدولي الاستعمار بأنه سياسة توسعية تمارسها بعض الدول في حق شعوب أقل نماءً، سيكون عليها القبول بنوع من روابط التبعية إزاء هذه الدول.

ساد الاستيطان مع ازدهار الظاهرة الاستعمارية في موجتها الثانية خلال القرنين 19 و20م، والتي كان دافعها الأساس- فضلا عن الهيمنة الإستراتيجية- البحث عن الأسواق والمواد الأولية، وكذلك نشر الثقافة الغربية والدين المسيحي في بعض الأحيان.

والواقع أن هذا التعريف والإقرار قائم على تناقض مشابه لذلك الذي تستند إليه الأيديولوجيا الاستعمارية؛ فهي تعتبر إلحاق أرض أو احتلال دولة توسعا مشروعا، كما تُشرّع الهيمنة والاستغلال الاقتصادي لفائدة القوى الاستعمارية دون أي وجه حق إلا ما كان تحت عنوان "الأرض التي لا سيد لها" أو "الأرض الخلاء"، وهو تبرير متهافت كون كل الأراضي التي تم احتلالها تقريبا مأهولة[10].

وبناءً على سبق فإن الاستعمار الفرنسي في الجزائر فريد من نوعه، لا لأنه يختلف عن بقية أشكال الاستعمار التي عرفتها المعمورة قديما وحديثا؛ ولكن لأنه يجمع بين جميع صفات أنواع الاستعمار سواء من حيث الشكل والجوهر أو من حيث الأساليب المتبعة لتثبيته؛ فهو استعمار استغلالي وإحتلالي في آن واحد، وهو بذلك

«حالة استثنائية شاذة يمكن وصفها بالمستعمرة الهجينة... الذي يمتزج فيها الاستغلال بالاستيطان...»[11]. هذا إلى جانب كونه استعمارا استغلاليا استيطانيا كان أيضا عسكريا ودينيا[12].

- واقع الزراعة في منطقة الشلف:

- تاريخ الاستيطان الفرنسي بمنطقة الشلف: في بدايات الاحتلال وصفت المصادر الفرنسية المنطقة بأنها كانت غير مأهولة وغير مزروعة، وهي عبارة عن «صحراء داخل صحراء أكبر»[13] حسب تعبير الكولونيل دي سان آرنو (Saint-Arnaud)[14]، وهو طرح لطالما روجت له الأقلام الاستعمارية لتبرير الاستيلاء على الأراضي الواسعة والادعاء بشرعية ملكيتها والافتخار بشرف تعميرها، ولكن الجغرافيا تكذب هذا الادعاء؛ فالمنطقة من ناحية الموقع تعتبر منطقة عبور، وهي عبارة عن منطقة سهلية تربتها خصبة وبها شبكة مائية واسعة، وهي كلها عوامل جاذبة للاستقرار البشري[15]، الأمر الذي أكدته الدراسات الفرنسية نفسها؛ فكانت حسبها تقدم أجود أنواع المحاصيل المختلفة، ومنها أجود الخمور واللحوم[16].

ثم إن الإحصائيات التي قدمتها السلطات الفرنسية عن القبائل التي كانت تقطن المنطقة، ومساحات الملكيات الخاصة والجماعية، وعدد رؤوس الأنعام التي تملكها كلها تفند الادعاء القائل بإنها مناطق غير مأهولة[17].

بدأ الاستيطان في السنوات الأولى التي أ عقبت تأسيس المركز العسكري في 16 ماي 1843م من قبل الجنرال بيجو (Bugeaud)، وقد كان الغرض الأساسي من بنائه جعله منطقة مراقبة عسكرية، ونقطة ارتكاز ودعم للقوات الغازية، ثم جاء التأسيس الرسمي للمدينة في 14 أوت 1845م، وقد ضمت بالإضافة إلى أفراد الحامية العسكرية، عدد من المستوطنين الفرنسيين والأجانب، وجاء إنشاء أولى المستوطنات الزراعية (بونتيبا (Pontéba)، والفيرم (la ferme) بموجب مرسوم رئاسي صادر بتاريخ 11فيفري 1851م يشرف عليهما ضباط عسكريون[18].

قامت سياسة الاستيطان على انتزاع الأراضي من أصحابها الشرعيين؛ فعلى سبيل المثال بلغت المساحة التي اقتطعت من قبيلة أولاد قصير بسهل الشلف 20

ألف هكتار من مجموع 39 ألف هكتار التي تملكها القبيلة، كما انتزع من قبيلة جندل في ناحية الخميس 4 آلاف هكتار من أصل 8 آلاف و900 هكتار[19].

لقد كانت عملية انتقال الأرض هي السبيل الوحيد للاستيطان، ولتثبيت الوجود الاستعماري بكل أوجهه؛ فالكردينال شارل لافيجري (Charles Lavigerie) قام بشراء ألف هكتار من الأراضي الزراعية بمنطقة العطاف بسهل الشلف، وبنى عليها قريتين هما سان سيبريان (Saint-Cyprien) وسانت مونيك (Ste Monique)، ليسكن فيها ما عرف بالعرب المتنصرين، ومنحت الأراضي- على سبيل الإعارة- للعائلات المتنصِّرة للعمل في الزراعة[20].

- **التعريف بعمالة أورليونفيل** (Département d'Orléansville)**:** أُنشئت عمالة أورليونفيل- والتي تسمى أيضا عمالة الشلف- بموجب مرسوم 28 جوان 1956م المتعلق بإعادة التنظيم الإقليمي للجزائر، وتغطي العمالة مساحة تقدر بـ1220000 هكتار، وهي مقسمة إلى ستة دوائر وهي: شرشال وديبيري (Duperré) (عين الدفلى حاليا) وملیانة وأورليونفيل(الشلف حاليا) وتنس وثنية الحد[21]، وبلغ مجموع سكان العمالة- حسب إحصاء 31 أكتوبر 1954م- 633.630 نسمة مصنفين إلى مسلمين وعددهم 611.889 نسمة؛ وغير المسلمين، وهم المستوطنون الأوروبيون، وقدر عددهم بـ1.741 نسمة[22]، وبذلك فإن نسبة الكولون لا تتجاوز 5.3 بالمائة من مجموع السكان في حين يشكل المسلمون ما يفوق 96 بالمائة؛ منهم 565 ألف هم سكان الريف، أي ما نسبته 88 بالمائة من مجموع سكان العمالة، وهي نسبة أعلى من نسبة سكان الأرياف في الجزائر آنذاك، والتي تصل إلى 75 بالمائة[23].

تتميز العمالة عامة وعاصمتها خاصة بموقعها المتوسط بالنسبة لمدينتي الجزائر ووهران، والتي يربطها بهما وبغيرها من المدن شبكة من خطوط المواصلات؛ وأهمها خط سكة الحديد الذي يعود تاريخ وصوله لمدينة الشلف إلى 15 جانفي 1870م، حيث تم ربطها بمدينة غليزان في الغرب الجزائري، بينما تم ربط مدينة الشلف بمدينة خميس مليانة بتاريخ 31 ديسمبر من نفس السنة، ولكن إنهاء خط وهران- الجزائر لم يتم إلا في تاريخ 1 ماي 1871م عندما تم الانتهاء من أشغال إنجاز آخر

وأصعب مقطع، وهو الذي يربط خميس مليانة بمدينة بومدفع في الفاتح من ماي سنة 1871م[24].

تتشكل المنطقة من سلاسل جبلية تمتد طوليا، وهي السلسلة الساحلية التي تمتد من شرشال إلى تنس وسلسلة جبال الظهرة وزكار وسلسلة جبال الونشريس في جنوب المنطقة، والتي تحصر بينها وبين السلسلة الساحلية وجبال الظهرة وزكار سهل وادي الشلف، وتشكل المرتفعات نسبة 89 بالمائة من مساحة العمالة بينما تشكل السهول النسبة الباقية وهي 11 بالمائة، أما بالنسبة لمساحة العمالة مقارنة مع المساحة الإجمالية للجزائر فتقدر بـ4 من المائة[25].

- **ملكية الأرض:** استولى المستوطنون على أخصب وأجود الأراضي في منطقة الشلف، ولم يتركوا للمسلمين إلا الأراضي غير الصالحة أو ذات المردودية الضعيفة والجدولين التاليين[26] يبينان مساحة الأراضي والملكيات في المناطق المروية في حوض الشلف بشكل مقارن بين الأوروبيين (المستوطنين) والمسلمين.

- مساحة الأرض:

	المساحة بالهكتار	
مساحة الوحدة(هكتار)	الأوروبيون	المسلمون
أكثر من 50 هـ	11.939	3.784
من 20 إلى 50 هـ	1.262	1.635
من 5 إلى 20 هـ	388	1.500
أقل من 5 هـ	237	463
المجموع	13.826	7.382

توزيع مساحة الأرض بين الأوروبيين والمسلمين (1960)

- عدد الملكيات:

	عدد المكيات	
مساحة الوحدة(هكتار)	الأوروبيون	المسلمون
أكثر من 50 هـ	64	34
من 20 إلى 50 هـ	54	29
من 5 إلى 20 هـ	1	126

أقل من 5 هـ	157	655
المجموع	276	844

عدد الملكيات لدى الأوروبيين والمسلمين (1960)

وبقراءة بسيطة للجدولين يمكن أن نستنتج ما يلي:

- إن المستوطنين الذين لا تتجاوز نسبتهم 3.5 بالمائة من مجموع السكان يستحوذون على ضعف المساحة المسقية مقارنة مع المسلمين الذين يشكلون الغالبية الساحقة أي 96 بالمائة من مجموع السكان.

- تتركز الوحدات الزراعية الواسعة- التي تتجاوز مساحتها 50 هكتار- في يد الكولون، وهي وحدات تصلح لنمط الزراعة الواسعة التي يسهل فيها استخدام الآلات والمعدات الحديثة.

- تتميز الوحدات الزراعية التي بقيت للمسلمين بضيق المساحة وتفتتها مما يصعب استخدام المعدات الحديثة فيها.

- لقد أدت السياسة الاستيطانية والاستيلاء على أراضي المسلمين بمختلف الطرق إلى وجود نوعين من الملكيات الزراعية في الجزائر:

ملكيات كبيرة: يملكها المعمرون والشركات الفلاحية وقلة من البورجوازية الجزائرية، وهي أجود الأراضي الزراعية وتتوفر على أحدث الوسائل وأفضل الإمكانيات وانتاجها موجه أساسا للصناعة والتصدير.

ملكيات صغيرة: وهي أراضي زراعية ذات مساحة صغيرة أو متوسطة، يملكها الفلاحون الجزائريون، تتميز بفقر تربتها وضعف إمكاناتها وأساليبها التقليدية، وبالتالي ضعف الإنتاج ومردودية الأرض[27].

إن هذا التفاوت في ملكية الأرض ونوعيتها أثر على معيشة المسلمين ونمط اقتصادهم الزراعي، ولذا تميز النشاط الزراعي بوجود قطاعين زراعيين متباينين: قطاع حديث متطور يسيطر عليه الأوروبيون، وقطاع تقليدي متخلف سائد لدى المسلمين.

- القطاع الحديث والقطاع التقليدي:

- **القطاع الحديث:** يسيطر عليه المعمرون، ويستحوذ على أجود الأراضي خاصة تلك المروية، ويوجه إنتاجها للصناعة أو التصدير، وأهم المزروعات البنجر السكري؛ وتغطي زراعته مساحة 1000 هكتار، ونظرا لإنتاجه الوفير أنشأت السلطات الاستعمارية مصنعا للسكر بمنطقة الشلف الأعلى (الخميس)، وإلى جانب البنجر السكري ازدهرت الزراعات القطنية وزراعة الأعلاف، وبخاصة البرسيم والخضر والأشجار المثمرة كالمشمش والتفاح والخوخ والإجاص والحمضيات التي توسعت على حساب زراعة الحبوب والعلف[28].

إلا أن أهم زراعة أدخلها المستوطنون هي زراعة **الكروم** الموجهة لإنتاج الخمور التي شغلت 8،5 بالمائة من إجمالي المساحة الزراعية، وكانت تساهم بـ32 بالمائة من الناتج الخام للعمالة؛ وبذلك احتلت المرتبة الثانية في مصادر الدخل للعمالة[29]، وقد ازدادت أهميتها خلال الحرب التحريرية بسبب زيادة تعداد العساكر وارتفاع أسعار الخمور[30].

كما ازدهرت زراعة **التبغ**[31] التي عدت من الزراعات الغنية، وكانت تساهم بـ4 في المائة من الناتج الخام للعمالة بالرغم من إنها لا تشغل سوى 1 بالمائة من المساحة المزروعة، التي يتقاسمها الفلاحون الجزائريون والكولون تقريبا بالتناصف؛ إلا أن الفرق يكمن في عدد المستثمرات؛ فهي 700 مستثمرة يستغلها الفلاحون المسلمون، و110 مستثمرة يملكها الكولون، ويكمن الفرق أيضا في معدل مساحة المستثمرات فهو 5،1 هكتار بالنسبة للفلاحين المسلمين، و11هكتار بالنسبة للكولون، وكذلك في مردودية الهكتار الواحد فهي 7 قنطار في الهكتار بالنسبة لمستثمرات الكولون، و5.8 قنطار في الهكتار بالنسبة لمستثمرات الفلاحين المسلمين، ويعود هذا التفاوت إلى طريقة معالجة وإعداد التربة وتوفر الإمكانيات[32].

وبالرغم من اعتبار زراعة التبغ زراعة نقدية لا تدخل ضمن الضرورات الغذائية للسكان إلا أنها تلعب دورا اجتماعيا مهما لما توفره من فرص العمل؛ فهي تتطلب من 200 إلى 220 يوم عمل للهكتار الواحد، وبسبب صغر حجم المستثمرات التي يستغلها الفلاحون فإنهم يعتمدون بنسبة 90 في المائة على اليد العاملة العائلية، بينما نجد المزارعين الأوروبيين يشغلون يد عاملة مؤهلة[33].

- **القطاع التقليدي:** على عكس القطاع الحديث فإن الزراعة في القطاع التقليدي السائد في المجتمع المسلم تعتمد على الأساليب والوسائل البسيطة، وعلى خبرة الفلاح التي توارثها جيلا عن جيل، كما أن نوع المحاصيل المزروعة موجه أساسا لتلبية حاجات السكان الغذائية الأساسية، ولذا فهي زراعة معاشية بالدرجة الأولى، وصنفت كزراعة فقيرة، وهذا هو قطاع المسلمين الذي ينحصر نشاطهم الزراعي في زراعة الحبوب والرعي وتربية المواشي.

- **زراعة الحبوب:** تعتبر الحبوب وبخاصة الشعير[34] من المحاصيل الرئيسة التي يفضل المسلمون زراعتها لاعتبارات عدة أهمها، كونها من الزراعات الجافة التي تمتاز بالقوة والصمود، كما يمكن حصادها ونقلها بطرق تقليدية في ظل غياب التقنيات الحديثة، كما يمكن تخزينها لمدة طويلة[35]، ناهيك أن طبيعة الأراضي التي تركها لهم المستوطنون لا تصلح إلا لهذا النوع من المحاصيل، وكذلك كونها مصدر الغذاء الرئيس للسكان.

تشكل الحبوب 85 بالمائة من المساحة المزروعة، وتساهم بـ29 بالمائة من الناتج الخام للعمالة، وبلغت مساحة الأرض المزروعة سنة 1959م بالنسبة للقطاع التقليدي 148 ألف هكتار و48 ألف هكتار للقطاع الحديث، ومع ذلك اعتبرت منطقة الشلف من المناطق التي تعتبر فيها زراعة الحبوب المربحة من أكثر النشاطات الزراعية التي يسهل ممارستها[36].

وبالمقارنة مع السنوات السابقة خاصة منذ اندلاع الثورة التحريرية تناقصت المساحة الزراعية وكمية الإنتاج وعائدات الهكتار الواحد، والجدول التالي يبين ذلك:

	القطاع التقليدي			القطاع الحديث		
السنة	المساحة (1000 x هـ)	الانتاج (1000 x ق)	المردود ق/هـ	المساحة (1000 x هـ)	الانتاج (1000 x ق)	المردود ق/هـ
1954	171	983	7،5	59	605	10
1955	186	1011	6،5	63	778	3،12
1956	148	1040	7	52	628	12
1957	157	728	5	55	525	5،9
1958	142	793	6،5	53	510	6،9
1959	148	623	3،4	48	448	3،9

زراعة الحبوب في العمالة (المساحة، الإنتاج، المردود) (1960) [37]

ومن الواضح أن إنتاج الحبوب عرف تذبذبا منذ 1954م، وتناقص الإنتاج ومردود الهكتار، ويعود ذلك إلى الظروف الطبيعية من جهة وإلى الأوضاع الأمنية من جهة أخرى[38]، وإذا قارنا بين القطاعين فسنلاحظ أن مردود الهكتار في القطاع الحديث التابع للكولون يفوق الضعف بالنسبة لمردود الهكتار الواحد في القطاع التقليدي السائد عند المسلمين، وهذا نتيجة طبيعية للظروف والعوامل التي ذكرناها أعلاه.

- **الرعي وتربية المواشي: القطاع الأكثر فقرا:** اعتبرت المدرسة الكولونيالية أن الجزائري التقليدي راعي مواشي بلا شك، ولكن هذا النشاط لا يساهم في اقتصاد العمالة، واعتبر بالنسبة للمسلمين وسيلة ادّخار، وكان الفلاح الجزائري يجهل أدني طرق وتقنيات تربية المواشي الحديثة، ومنها على سبيل المثال طريقة حفظ الأعلاف العشبية بكامل مكوناتها الغذائية والمعروفة بـ«L'ensilage»[39]؛ وبالإضافة إلى ما سبق فإن المربي الجزائري يجهل تماما معادلة الغذاء المتوازن الذي يقدم للمواشي[40].

أن من أهم الأنعام التي تربى نجد **الأبقار** التي تربي بطرق حديثة وأخرى تقليدية؛ فالنسبة لتربية الأبقار الحديثة تنتشر في المساحات المروية، وقدرت أعدادها

بـ35 ألف رأس، وتمارس لأغراض تجارية، ولذا أدخل الكولون إلى العمالة عدة سلالات أوروبية، والمردودية مرتفعة إذا ما قورنت بتربية الأبقار التقليدية السائدة عند الأهالي، بحيث يشترى المربون الأبقار الهزيلة في نهاية الصيف من الأسواق المحلية كالشلف والعطاف والخميس وكافينياك (Cavaignac) وغيرها لتباع في شهر فبراير على أبعد تقدير للمسالخ.

إلى جانب تربية الأبقار تربى في المنطقة **الأغنام والماعز** بخاصة في سفوح الجبال المحاذية لوادي الشلف؛ **فالأغنام** تمثل مصدر دخل مالي مباشر بالنسبة للفلاح الجزائري؛ وهو ما يفسر تعدادها المعتبر، والذي قدر بـ120 ألف رأس، ويتم رعيها في الأراضي التي تركت للراحة أو في حقول الحبوب بعد الحصاد، أما بالنسبة **للماعز** فهي الثروة الوحيدة لسكان الأرياف الفقراء الذين لا يملكون أي قطعة أرض، وهي توفر اللبن لعائلة مربيها لمدة شهرين أو ثلاثة أشهر في السنة، كما تمكنه من شراء ما يسد رمقه من الحبوب جراء بيع بعض الجديان، وهي أي الماعز بالنسبة للسلطات الإستعمارية «عنوان للغابة التي تموت وللتربة التي تنجرف»؛ لذا كان الفلاح الجزائري يعاني من الحظر الذي تفرضه الإدارة الاستعمارية على رعي الماعز بالمناطق الغابية، بحجة أنها مخربة للغابة، أما بالنسبة لتربية **الخنازير** التي أدخلها المستوطنون فلم يولها الفلاح الجزائري أي اهتمام لاعتبارات دينية[41].

وإجمالا فإن نقاط الاختلاف والتباين بين القطاعين الحديث والتقليدي هي:

القطاع الحديث: يتحكم فيه 1500 مستثمر جلهم أوروبيون يستغلون قطع زراعية معدل مساحتها 118 هكتار، ويستحوذون على 90 في المائة من الزراعات الغنية، و40 في المائة من الزراعات الفقيرة، و95 في المائة من المعدات الحديثة (جرارات، حاصدات...)، وبناتج خام متوسط يقدر 56 ألف فرنك جديد.

القطاع التقليدي: يعمل به 50 ألف فلاح في قطع زراعية مساحتها في المتوسط 80،12 هكتار يملكون 10 في المائة من الزراعات الغنية، و60 في المائة من الزراعات الفقيرة، و5 في المائة من المعدات الحديثة، وبناتج خام متوسط يقدر 1140 ألف فرنك جديد لكل فلاح، وقد حال التنظيم الزراعي ونظام التمويل دون تحقيق الثروة في هذا القطاع[42].

وعلى العموم فإنه وبنهاية الخمسينيات أصبحت فئة الفلاحين أقلية، وأصبح الجزائريون الذين يعملون في الزراعة طبقة كادحة تعمل في الزراعة كعمال دائمين أو موسميين أو خمَّاسَة[43]، كما أن الكثير من الفلاحين اضطرّوا إلى ترك أراضيهم باعتبارها تدخل ضمن المناطق المحرمة، وكذلك بسبب إجبارهم على الإقامة في المحتشدات التي بلغ عددها الألف في نهاية سنة 1959م في كل الجزائر، وضم كل محتشد 200 فلاح في المعدل، وذلك لغرض عزلهم عن الثوار[44].

- **الإصلاحات:** حاولت الإدارة الاستعمارية تحسين أوضاع الفلاحين المسلمين عبر جملة من القوانين والإجراءات التي تجسدت في إنشاء التعاونيات والمؤسسات التي كان الغرض منها الحد من تآكل وتدهور الأراضي الزراعية التابعة للجزائريين وتحسين المردودية.

من هذه التعاونيات «قطاعات تطوير الريف»، (Secteurs d'Amélioration Rurale) والمعروفة اختصارا بـS.A.R التي أنشئت في 18 أفريل 1948م، وكان مخطط لها أن يصل عددها إلى 800 قطاع (تعاونية) في سنة 1956م في كل أنحاء الجزائر، ولكن بحلول هذه السنة لم يتجاوز عددها 220 قطاع، لذا أوقف العمل بها، وفي سنة 1952م أنشأت الإدارة الاستعمارية نظاما جديدا عرف بـ«جمعيات التعاون الفلاحي»(Sociétés Agricoles de Prévoyance) المعروفة اختصارا بـ .S. A .P، وقد بلغ عددها 90 جمعية تضم 500.255 منخرط سنة 1960م، والتي أصبحت جزءً من مشروع قسنطينة، ولكن قيمة القروض المقدمة للفلاحين في إطار «لاصاب» كانت تتراجع سنة بعد سنة، كما أصدرت الإدارة الاستعمارية مراسيم تتعلق بإلغاء نظام الخَمَّاسة، واقترحت أن يأخذ الفلاح النصف بدل الخُمس[45].

ولكن هذه المشاريع والمخططات فشلت كلها في النهاية، لأنه لم يكن الغرض الأساسي منها ترقية الفلاح الجزائري، وإنما كان الغرض منها التهدئة، لكن الفلاح الجزائري ككل الشعب الجزائري كان قد راهن على الثورة التي وعدته بالتحرر واستعادة أرضه.

- **الخلاصة والاستنتاجات:** سعينا من خلال هذه الورقة البحثية إلى تسليط الضوء على واقع الزراعة، وأوضاع الفلاحين الجزائريين في ظل سياسة الاستيطان المكثف

بمنطقة الشلف؛ وكيف أدت هذه السياسة إلى وجود تمايز وتباين بين مجتمعين مختلفين، مجتمع جزائري قفير ومجتمع أوروبي غني، ويكمن أن نلخص ما توصلنا إليه من نتائج في النقاط التالية:

- لتشجيع الاستيطان عملت فرنسا بمختلف الصيغ على نقل الملكية من المسلمين إلى الأوروبيين مما جعل الفلاح الجزائري يتحول إلى عامل زراعي دائم أو موسمي بأجور زهيدة.

- بالرغم من إن نسبة الأوروبيين (الكولون) كانت لا تتجاوز 3، 5 بالمائة من مجموع سكان العمالة إلا أنهم استحوذوا على ثلثي إجمالي المساحة الزراعية، وجلها أراضي سهلية خصبة ومسقية.

- إن الإصلاحات التي قامت بها الإدارة الاستعمارية استفادت منها فئة الكولون بينما حرم منها الفلاح الجزائري الفقير بسبب الإجراءات البيروقراطية (حيازة عقد ملكية الأرض للحصول على قرض، عدم انخراطه في النقابات المهنية، والتعاونيات...)، وكذلك بسبب الأمية التي كانت متفشية في أوساط الجزائريين.

- أدخل الكولون محاصيل زراعية تجارية ربحية مثل الكروم والتبغ والقطن بالإضافة إلى تربية الخنازير، وكانت موجهة أساسا لأسواق المتروبول، ولم تعد بالفائدة على المسلمين الذين كانوا يمارسون الزراعات المعاشية الفقيرة.

- تراجعت الزراعة عموما بعمالة الشلف، وبخاصة الزراعة المعاشية في مرحلة الثورة التحريرية، وأرجعت المصادر الفرنسية ذلك إلى الوضع الأمني بالإضافة إلى العوامل الطبيعية.

المراجع:

1-العربية:

- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد مكرم الإفريقي المصري، لسان العرب، م 13، دار صادر، بيروت، د ت.

- سعد الله أبو القاسم، على خطى المسلمين حراك في التناقض، عالم المعرفة، ط1، الجزائر، 2009.

- طاعة سعد، مبخوتة سهام، مشاكل القطاع الزراعي الجزائري وتحديات الاستعمار (1945 – 1956م) زراعة الحبوب أنموذجا، حوليات جامعة الجزائر1، ع 31، ج 4.

- سلاماني عبد القادر، دور مولود قاسم نايت بلقاسم في تدويل القضية الجزائرية بالمحافل الدولية، مجلة قضايا تاريخية، ع 8، م 5، 2017.
- إدريس سهيل، جبور عبد النور، المنهل قاموس فرنسي- عربي، دار الآداب- دار العلم للملايين، بيروت، 1983.
- عيساني محمد، تطور النشاط الاستيطاني الأوروبي في منطقة الشلف خلال فترة (1843-1962)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ المعاصر، جامعة الجزائر 2، 2011-2012.
- بن داهة عدة، الاستيطان والصراع على ملكية الأرض إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر 1830 – 1962، ج1، دار الكوثر، ط1، الجزائر، 2015

2- اللاتينية:

-Busson Henri. Le développement géographique de la colonisation agricole en Algérie. In ، Annales de Géographie، t. 7، n°31،1898.
-Emerit Marcel، le problème de la conversion des musulmans d'Algérie sous le Second Empire، Revue historique، janvier mars 1960.
-Hildebert Isnard. Vigne et colonisation en Algérie. In، Annales de Géographie، t. 58، n°311، 1949.
-Lequy Roger. L'agriculture algérienne de 1954 à 1962. In ، Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée، n°8، 1970.
-Lucas، Georges et al.، Petit Larousse en couleurs، librairie Larousse، édition 1986، paris، septembre 1985.
-Moati Paul et al، le développement agricole du département d'Orléansville، les techniciens de la direction départementale des services agricoles et du paysanat، imprimerie Baconnier، Alger، s.d.
-Narcisse Faucon، Le livre d'Or de l'Algérie، Challamel et Cie Éditeurs، Librairie Algérienne et Coloniale، Paris، 1889.
-Pourcher، Charles. La Plaine du Chélif. Description physique، climat، le Chélif، irrigations، conditions générales de la culture، imprimerie orientale Piere Fantana، Alger، 1900.
-Saint-Arnaud، Arnaud Jacques Leroy de، Lettres du maréchal de Saint Arnaud، 1832-1854، 2eme édition، T2، Michel Lévy frères، libraires-éditeurs، Paris، 1858.

3- المواقع الإلكترونية:

-Bessaoud Omar، « L 'Algérie agricole ، de la construction du territoire à l'impossible émergence de la paysannerie »، Insaniyat / إنسانيات[En ligne]، 7 | 1999، mis en ligne le 31 mai 2013
-Documents Algériens، Population des quinze départements algériens، série sociale n° 50- 15 Mai 1958، http،//alger-roi.fr/Alger/documents_algeriens/social/pages/50_population_1954.pdf
-https،//jeanyvesthorrignac.fr/wa_files/INFO_20691_20ORLEANSVILLE. Pdf
https،//www.aljazeera.net/encyclopedia/conceptsandterminology/2015/12/18/%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%B3%D8%AA%D9%8A%D8%B7%D8%A7%D9%86
-https،//www.alukah.net/sharia/0/108349/#ixzz5gd3xAXcx.
-Jean BRUHAT، « COLONISATION »، Encyclopædia Universalis [en ligne]، consulté le 21 février 2019. URL ، http،//www.universalis.fr/encyclopedie/colonisation/
-Mohamed Tiab، 2017، Un lieu، une histoire ، Il y a 147 ans circulait le premier train

entre Orléansville et Oran ، http،//www.lechelif-dz.com/2017/05/18/un-lieu-une-histoire-il-y-a-147-ans-circulait-le-premier-train-entre-orleansville-et-oran/. Date de consultation
-Myriam COTTIAS، « COLONISATION، notion de »، Encyclopædia Universalis [en ligne]، consulté le 18 février 2019. URL ، http،//www.universalis.fr/encyclopedie/colonisation-notion-de/

الهوامش:

1 - ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد مكرم الإفريقي المصري، لسان العرب، م 13، دار صادر، بيروت، د ت، ص 451.

2 - إن مقابل ومرادف كلمة (Colonisation) في العربية هو استعمار بينما مرادفات كلمة (Colon) في العربية هي، طارئ، نازح، مُعَمِّر، مُستوطِن، مزارع... أما الفعل (Coloniser) فترجمته، استعمَر، استوطَن، احتل. انظر،

- سهيل إدريس وجبور عبد النور، المنهل قاموس فرنسي- عربي، دار الآداب – دار العلم للملايين، بيروت، 1983، ص 219.

3 - Lucas، Georges et al.، Petit Larousse en couleurs، librairie Larousse، édition 1986، Paris، septembre1985، p.206.

4 - كمال عبد المنعم محمد خليل، عمارة الأرض واجب إنساني، شبكة الألوكة،

تاريخ المعاينة 27-02-2019 10،15،14 https،//www.alukah.net/sharia/0/108349/#ixzz5gd3xAXcx

5 - عبد القادر سلاماني، دور مولود قاسم نايت بلقاسم في تدويل القضية الجزائرية بالمحافل الدولية، مجلة قضايا تاريخية، ع 8، م5، 2017، ص 147 – 155.

6 - Jean BRUHAT، « COLONISATION »، Encyclopædia Universalis [en ligne]، consulté le 21 février 2019. URL ، http،//www.universalis.fr/encyclopedie/colonisation/

7 - Busson Henri. Le développement géographique de la colonisation agricole en Algérie. In ، Annales de Géographie، t. 7، n°31،1898. pp. 34-54.

8 - هذا التعريف ذكره «تزفيتان تورودو» (Tzvetan Todorov) في كتابه غزو أمريكا، مسألة الآخر، (La Conquête de l'Amérique، la question de l'autre) من،

- Myriam COTTIAS، «COLONISATION، notion de»، Encyclopædia Universalis [en ligne]، consulté le 18 février 2019. URL ، http،//www.universalis.fr/encyclopedie/colonisation-notion-de/

9 - أبو القاسم سعد الله، على خطى المسلمين حراك في التناقض، عالم المعرفة، ط1، الجزائر، 2009، ص 265.

10 - من موسوعة الجزيرة،

https،//www.aljazeera.net/encyclopedia/conceptsandterminology/2015/12/18/%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%B3%D8%AA%D9%8A%D8%B7%D8%A7%D9%86

11 - عدة بن داهة، الاستيطان والصراع على ملكية الأرض إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر 1830 – 1962، ج1، دار الكوثر، ط1، الجزائر، 2015، ص 42، 49.---- 12- عدة بن داهة، نفسه.

13 -Saint-Arnaud، Arnaud Jacques Leroy de، Lettres du maréchal de Saint Arnaud، 1832-1854، 2eme édition، T2، Michel Lévy frères، libraires-éditeurs، Paris، 1858، p.2.

14[1] - جاك لو روي دي سانت أرنود Saint-Arnaud،(Jacques Le Roy de) (1798- 1854)، مارشال فرنسي أرسل للجزائر سنة 1836 ضمن فرق اللفيف الأجنبي، شارك في احتلال قسنطينة، في 1840 عين على رأس كتيبة في فيلق الزواف، وقد أسس فرقتين من الزواف وأخريين من القناصة، شارك في الاستيلاء على معسكر وقمع مقاومة بومعزة، كما شارك في حرب القرم سنة 1854. من،

- Narcisse Faucon، Le livre d'Or de l'Algérie، Challamel et Cie Éditeurs، Librairie Algérienne et Coloniale، Paris، 1889، p. 541-542.

15 - محمد عيساني، تطور النشاط الاستيطاني الأوروبي في منطقة الشلف خلال فترة (1843-1962)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ المعاصر، جامعة الجزائر 2، 2011-2012، ص31.----- 16 - لمزيد حول الموضوع ينظر،

- Charles Pourcher، La Plaine du Chélif، Description physique، climat، le Chélif، irrigations، conditions générales de la culture، imprimerie orientale Piere Fantana، Alger، 1900، p. 4-8.

17 - عيساني، المرجع نفسه، ص 28-36.

18 - https‹//jeanyvesthorrignac.fr/wa_files/INFO_20691_20ORLEANSVILLE.pdf

19 - عدة بن داهة، مرجع سابق، ص 131.

20 - Marcel Emerit‹ le problème de la conversion des musulmans d'Algérie sous le Second Empire‹ Revue historique‹ janvier mars 1960‹ p. 83.

21 - Paul Moati et *al*‹ le développement agricole du département d'Orléansville‹ les techniciens de la direction départementale des services agricoles et du paysanat‹ imprimerie Baconnier‹ Alger‹ s.d.‹ p. 9.

22 - Documents Algériens‹ Population des quinze départements algériens‹ série sociale n° 50- 15 Mai 1958‹ http‹//alger-roi.fr/Alger/documents_algeriens/social/pages/50_population_1954.pdf

23 - Paul Moati‹ op. cit‹ p.14.

24 - Mohamed Tiab‹ 2017‹ Un lieu‹ une histoire‹ Il y a 147 ans circulait le premier train entre Orléansville et Oran‹ http‹//www.lechelif-dz.com/2017/05/18/un-lieu-une-histoire-il-y-a-147-ans-circulait-le-premier-train-entre-orleansville-et-oran/. Date de consultation 14/03/2019 13 ،46

25- Paul Moati‹ op.cit.‹ p. 14.

26 - Ibid.‹ p.19

27- سعد طاعة، سهام مبخوتة، مشاكل القطاع الزراعي الجزائري وتحديات الاستعمار (1945 – 1956م) زراعة الحبوب أنموذجا، حوليات جامعة الجزائر1، ع 31، ج 4، ص 66.

28- Paul Moati‹ op.cit.‹ p. 22 -25.

29 - Ibid.‹ p. 26.

30 - Lequy Roger. L'agriculture algérienne de 1954 à 1962. In ، Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée‹ n°8‹ 1970‹ pp. 41-99.

31 - تعتبر زراعة التبغ من الزراعات لتي صمدت في المنطقة وهي واحدة من بين الزراعات الدخيلة التي حاول الكولون الاستثمار فيها في الجزائر (كقصب السكر والكاكاو والبن ...) وفشلت تقريبا كلها. لمزيد من المعلومات حول أنواع الزراعات التي كانت محل التجربة، ينظر،

- Isnard Hildebert. Vigne et colonisation en Algérie. In ، Annales de Géographie‹ t. 58‹ n°311‹ 1949. pp. 212-219.

32 - Paul Moati‹ op.cit.‹ p. 29.

33 - Ibid.‹ p. 30.

34 - يعتبر خبز الشعير الغذاء الوحيد لغالبية الطبقة الوسطى والفقيرة من السكان المسلمين،

- Charles Pourcher‹ op.cit.‹ p. 26.

35 - سعد طاعة، سهام مبخوتة، مرجع سابق، ص 60.

36 - Charles Pourcher‹ op.cit.‹ p. 17.

37 - Paul Moati‹ op.cit.‹ p. 32.

38 - Lequy Roger‹ op.cit.‹ 57-58.

39 - هو وسيلة للحفاظ على العلف الرطب من خلال التخمر اللاهوائي. وتجفيف العشب بعيداً عن الشمس. وبالتالي نحصل على أعلاف تتراوح نسبة الرطوبة فيها من حوالي 50٪ إلى حوالي 85٪. وهي طريقة ما زالت لحد الآن قليلة الاستعمال. (الباحث).

40- Paul Moati‹ op.cit.‹ p. 37.

41 - Ibid.‹ p. 40.

42- Paul Moati‹ op.cit.‹ p. 46.

43 - Bessaoud Omar‹ «L'Algérie agricole‹ de la construction du territoire à l'impossible émergence de la paysannerie»‹ *Insaniyat / انسانيات*[En ligne]‹ 7 | 1999‹ mis en ligne le 31 mai 2013‹ consulté le 31 mars 2019. URL ‹ http‹//journals.openedition.org/insaniyat/12124 ; DOI ‹ 10.4000/insaniyat.12124

44 -Lequy Roger‹ op.cit.‹ p. 59.

45 - ibid.‹ 65.